الوضع الاجتماعي

والعوامل المؤثرة فيه

« كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن . إلى المكان الذي جرت منه الأنهار ، إلى هناك تذهب راجعة » .

الشرق ، اليوم ، هو ذلك البحر الذي تصب فيه أنهار الثقافات من جميع أنحاء الدنيا . هو كالبحر في سعته وعمقه ، لكنه الآن ، ليس كالبحر في طبيعته . من البحر تتصاعد الأبخرة : فتنعقد غماماً ، فتتساقط قطرات تكر جميعها راجعة إلى البحر ، ما جرى منها على سطح الثرى ، وما تغلغل في باطنه . الشرق صابر يرمق هذه المياه المتدفقة ، ويبعث بلذة إلى هديرها ، ويستوعب برضى وغبطة ما تأتي به من خير وشر . هو اليوم في دور الاستعطاء والاقتباس . ولا بدّ من أن يأتي يوم يعيد فيه سيرته الأولى . فمنذ البدء ، ومن هذا الشاطىء ، سارت مع الموج أول فكرة عن الله ، وشعّ نورها في أرجاء المسكونة ، وأرشدت الناس إلى السماء وإلى الملكوت . وما فتئت الانسانية منذ ذلك اليوم تتغذى بالزاد الذي انبثق عن هذا الشرق وتتأثر به في جميع ألوان نشاطها . ويقيني أن دور النبوءات التي ترسو قواعدها على الخيال الجامح والايمان المطلق الكفيف قد مضى ، وأن الانسانية في سيرها الطويل تدنو من العقل المقنع بالخيال ، المفسح بالايمان ، وتبتعد رويداً رويداً عن الخيال المطلق الصرف . وإن هذا البعد سيزداد وذلك الدنو سيتعاظم . وإنما سوف لا تسير إلاّ في أثر نبي عقل الحضارات والفلسفات والديانات وسبر أغوار الانسانية ، واهتم بتنظيم أحوالها وعلاقاتها الدنيوية التي تمهد لها السبيل للآخرة ، وأقام الدليل على تفهمه لازدواج الانسان . إن الديانات القديمة قد بالغت في الدعوة إلى الآخرة وأمعنت في اغفال المشكلات الرئيسية المعقدة التي تواجهها البشرية في مراحل وجودها . لسنا بحاجة الى من يشذب غرائز العيش فينا التي تكيفها الاختبارات وتنقيها الآلام ، بل إننا ننشد في أعماقنا نوراً يتعدى عتبة الجسد وينفذ إلى أقداس الانسان ، إلى الأسلاك الخفية التي تربطه بالألوهية الشاملة .

إن فكرة الإله ، المنبثقة عن الشرق ، قد فرضت أولاً على العالم فرضاً . ثم ما لبثت أن أصبحت هذه العقيدة أقدس ما في الوجود وأخلده على الاطلاق . وقد كانت عبقرية

الغرب ، شبيبة الأجيال التي تمرّست على البشرية ، عاجزة عن ولادة فكرة جديدة تستوعب نضالها في محورها وتضامنها وتحوّلها الرسالات الروحية التي جاءت عن ألسنة أنبياء الشرق .
ولأول مرة ، بعد عهد العقم الطويل ، تمخّض العقل الغربي عن أول « رسالة » . إنها لا تتمم ما قبلها من الرسالات الأولى ، بل إنها تنسف وتنقض كل ما جاءت به تلك الرسالات . إن الغاية التي توخّاها الأنبياء والرسل ، ودأبوا على تحقيقها ، هي أن يرفعوا الإنسان من الأرض إلى السماء ، من الشر إلى الخير ، من الخطيئة إلى الطهارة ، من مخالب الشيطان إلى حضرة الرحمن . أما « رسالة » كارل ماركس ، في تصوره المادّي للتاريخ ، فإنها تهبط بالإنسان من السماء إلى الأرض ، وتنتزعه من أحضان الألوهية لتلقي به في أتون الغرائز البشرية المنطلقة من كل قيد ، وتجعله رهن مشيئة الأساليب الاقتصادية السائدة .

وكما أنّ الفكرة الدينية قد نمت حولها مؤسسات ، تولت التبشير بها ، حيناً بالقلم واللسان ، وأحياناً باليد ، واعتبرت أمراً واقعاً مقدّساً في عرف الجماعة ، وهكذا ، فإن المادية التاريخية تولت التبشير بها أحزاب منظّمة تنظيماً آلياً ، واقتلعت العقيدة الدينية الأصيلة في أصقاع كثيرة وحلّت محلها ، وكما أنّ مبدأ الألوهية قد تجسّد في اليهودية والمسيحية والإسلام ، كذلك المادّية التاريخية التي قال بها ماركس قد تركزت في الدول والأحزاب الشيوعية . فنشأ عن ذلك أن الانسان في هذا العصر أصبح واقفاً على مفترق الطرق ، وهذه الطرق متشعبة غير متشابهة . وقد اقتلعت المفهومات الدينية التي اقتبسها عن أنبيائه ورسله بمفهومات وتفسيرات مادّية جديدة للكون والحياة والانسان ، تفرضها بعض الدول على الشعب فرضاً ، وتحرّم العقائد والنظريات .

وقبل كل شيء تصطدم المادّية التاريخية بالمعتقد الديني وتنافي جوهر الدين وما يتفرّع عنه منافاة تامّة . فالعقيدة الدينية تقول : في البدء كانت الكلمة : وأن الشعور الديني عامل متأصل في أعماق الانسان ، غريزي ، وما انفكّ منذ الأزل وهو يدرو الوجود وما فيه إلى قدرة تسمو على الحلول والإحاطة والإدراك الإنساني . ولم يتورّع البعض عن القول إن الإنسان حيوان متدين . أما الشيوعية الماركسية فتؤمن بالعقيدة القائلة : في البدء كانت المادّة . وبينما نرى الكتب المقدسة تقرر أن الله قد خلق الإنسان ، يجعل التصوّر المادّي للتاريخ الانسان خالقاً لله ولفكرة الألوهية . ويتوقع الشيوعيون في السياق الطويل نضوب النزعة الدينية وعمّ الفكرة الإلحادية . ولا تأمل أن يكون هذا النضوب ثمرة النزاع الطبقي تلقاء المؤسسات الدينية والفكرة الدينية ، أو انتشار الثقافة وتبلورها في الذهن ، بل نتيجة للتحرر من العوز . لأن النزعة الدينية حسب التحليل الذي أوجدته المادّية التاريخية

الدين ، ما استقرت في النفوس وتمكنت أصولها في القلوب والعقول . كالأفعى حول البشرية إلاّ في زمن مرضي في التسمم ، فإن الإنسان عنده ضعيفاً لقوى لا طاقة له على كفاحها ومصارعتها . وفي تلك الحالات التي تخور فيها عزيمة الإنسان من جراء الجوع والجهل ، يأخذ يتعلل ويلهو بالدين ويمارس الصلاة ويتخيل آخرة تعوض عليه ما فاته من الحظ في الدنيا ، بغية أن ينسى آلامه الحاضرة . فتمكنت الخرافة من استعباده والسيطرة عليه وتسييره وفق هواها ، بدلاً من أن ينبذها ويتحرر منها . وينبغي على الدولة ، في مثل هذه الحال ، وهي أقوى وأكبر مؤسسة سياسية ، أن تقود الحملة التحريرية من ربقة الكوابيس الوهمية .

وقد جاء في المادة ١٢٤ من الدستور السوفياتي الصادر في ٥ ديسمبر ١٩٣٦ ما يأتي :

« ولكي نضمن للمواطنين حرية الضمير ، أصبحت الكنيسة في الاتحاد السوفياتي والمدرسة منفصلة عن الدولة ، وللمواطنين حرية ممارسة العقائد الدينية وحرية الدعوة ضد الدين » .

وبتنا في هذه الأيام نسمع من يقول أن الشيوعية تشبه المسيحية من وجوه كثيرة وإنها لا تناقض مطلقاً الصورة التي أرادها يسوع للمجتمع البشري . ومن يتدبر هذا القول الذي أريد به باطل ، بروية ودرس وتمحيص ، يدرك أن الجمع بين المذهبين مستحيل . فإنّ الشيوعية تؤمن أن الإنسان لم يتطوّر من حال إلى حال إلاّ بتأثير المادة فقط . فهي التي تنشىء وتنمي وتعين وجدانه وخياله واتجاهاته الفكرية . أما المسيحية ككلّ الرسالات السماوية حقيقاتها ، ترتكز أصولها على الإيمان بالله والآخرة والديونة والاعتراف بالملكية والخير والمحبة . وما من قوة تستطيع أن تؤثر بالإنسان وتخلقه خلقاً جديداً إلاّ ملكوت السموات ، « يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع » . وان يسوع لم يناد بثورة تقلب نظم الاجتماع والاقتصاد والسياسة . إنه حث الفرد أن يثور على نفسه لا على غيره ، وان يكافح ما يكمن فيه من مفاسد وشرور ، لا أن يخاصم جاره أو أيّاً كان من الناس . ذلك يقيناً منه ان الاصلاح لا يأتي من الخارج بل ينبع من الداخل ، من أعماق الشخصية ، من ذلك الكهف الذاتي « وأما أنا فأقول لكم ان كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه . اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيداً ، أقول لكم ان كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين . أيها الفريسي الأعمى نقّ أولاً داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجهما أيضاً نقيّاً » . إنه لم يحرض الفقراء على الأغنياء ولم ينغمس بالنزاع الناشب بين هاتين الطبقتين دائماً وأبداً ، لا ممالأة أو رهبة منه للطبقة الغنية ، ولا استهتاراً أو مقتاً للطبقة الفقيرة ، بل لأن هذا النزاع العنيف لا ينبثق عنه صلاح وخير بل فساد وشر .

إنه لم يتورّع من التنديد الشديد بالأغنياء فيقول : « ويل لكم أيها الأغنياء . ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون » ، وينعطف إلى الفقراء قائلاً « طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله » . إن التبشير بالآخرة لا بد من أن يحدث صدًى بعيداً في تلك النفوس القانعة المطمئنة التي انكمشت عن الضلال إذ انكمشت على النفس ، وضمت جوانحها على الحقد والبغضاء إذ أبت أن تنفتح على المحبة والعطاء ، وغلّت يدها إلى العنف فلم تستمرىء اللذة المنبثقة عن البذل والسخاء . ان الكلمات الوديعة التي تفوّه بها يسوع ، الصادرة عن نفس مطمئنة مؤمنة لن تنسجم مع تلك الحشرجة الشيوعية الصادرة من صدور مفعمة بالأحقاد والضغائن والبغض . « ان الشيوعيين يصرحون علانية أن نواياهم لا يمكن أن تتحقق إلاّ إذا مني النظام الاجتماعي التقليدي بانقلاب عنيف » . وبينما نرى يسوع يقول لأحد الذين معه : « رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون » . نسمع الجماعات الشيوعية تصرخ بلسان جورج صاند : « الكفاح أو الموت . الصراع الدامي أو العدم » . وتنشر إحدى الجرائد الماركسية الثورية هذا النداء الذي يدعو إلى ثورة لا تبقي ولا تذر ، ولا تقع فيه على أثر للرحمة أو الانسانية . « هيا ادعموا ! ليكن الانتقام نظيماً » هكذا يجب أن تكون لازمة الأناشيد الثورية ، وهكذا سيكون الصوت الذي سوف تطلقه اللجنة التنفيذية بعد انتصار طبقة العمال . « في الأوقات العصيبة يتحتم على كل ثوروي مؤمن أن يضع دائماً نصب عينيه هذا المصير : إما أن يتوصل للقضاء على أكبر عدد ممكن من أعدائه ، أو يتأهب للقضاء على نفسه » . وجاء في جريدة أخرى : « ان هذا الجمهور .. يفهم جيداً أن من مصلحته أن يذبح المالك ويحرق الأكواخ الموبوءة ، ويستولي على القصور الجميلة التي هادها بنفسه ، ويحطم الصناديق الحديدية ، ويقلب كل سلطة : فيشنق الملك والوزراء والشيوخ والنواب والمحامين وضباط البوليس وكل أذنابهم . ان هذا الجمهور الحقير سوف لا يصبح أكثرية إلاّ في يوم الثورة بالذات » .

ما هي القوى التي تكيّف المجتمعات البشرية وما هي المؤثرات التي تحدد وتميز الوضع الاجتماعي ؟ على هذا السؤال يجيب كارل ماركس ، ومن خلال جوابه تتبدى نظريته القائمة على التفسير المادي للتاريخ : « ان الناس في انتاجهم الاجتماعي خلال وجودهم ، تنشب بينهم علاقات محدودة ضرورية خارجة عن ارادتهم . وان العلاقات الناجمة عن الانتاج تتناسب مع درجة التطور الذي بلغته قوى الانتاج المادية . ومجموع هذه العلاقات الناشئة عن الانتاج تكون بنية المجتمع الاقتصادية ، وهي الأساس الذي يقوم عليه بناء حقوقي وسياسي ويتصل بأشكال معينة من الوجدانات الاجتماعية . إن أسلوب الانتاج في الحياة المادية يطبع

مظاهر الحياة الاجتماعية والحقوقية والفكرية على وجه العموم . وليس وجدان الناس هو الذي يحدد كيانهم ، بل على العكس ، فان كيانهم الاجتماعي هو الذي يحدد وجدانهم » .

وجاء في « البيان الشيوعي » على لسان ماركس وانجلز : « أتحتاج إلى ذكاء حاد وعميق لتفهم ان أفكار الناس ونظراتهم الواقعية ، وكذلك مبادئهم التي تتعلق بالماهيات ، وبكلمة وجدانهم ، تتحور جميعها تبعاً لظروف وجودهم وعلاقاتهم الاجتماعية ويتكلمون عن الافكار التي تثير المجتمع بكامله ، وهم في ذلك لا يقررون إلاّ واقعاً وهو ان العناصر التي يتكوّن منها كل مجتمع جديد ، قد تكونت في المجتمع القديم ، وان انحلال الافكار القديمة يسير جنباً إلى جنب مع انحلال ظروف المعيشة القديمة » .

ولكي تتحقق آمال ماركس وانجلز وتصدق نظريتهما ينبغي أن تنشب ثورة عنيفة يتم فيها النصر للطبقة العاملة التي تأخذ على عاتقها نسف المجتمع البشري التقليدي وازالة رأس المال وكل أساليب الانتاج القديمة التي اعتمدتها البشرية في الزمن القديم .

هذه هي زبدة النظرية التي قال عنها انجلز نفسه : « ان ناموس المادية التاريخية الذي اهتدى إليه كارل ماركس ، يضاهي ناموس الجاذبية الذي توصل نيوتن للكشف عنه » . ويقول لابريولا : « ان الشيوعية تستطيع أن تتنبأ عن المستقبل » .

يبدو لنا من فحوى هذه الأقوال ان الشطط الذي تنطوي عليه يطغى على الصواب ، وان المغالاة تفوق حد الاعتدال وذلك راجع لسببين : أما الأول فهو ان المتشيعين المغالين قد عدوا نظرية المادية التاريخية في عداد النظريات العلمية الثابتة التي لا تقبل النقض مطلقاً وتصدق في كل زمان ومكان ، والثاني لأنهما تناولت بالتفسير والتعليل حالات اجتماعية تاريخية نسبية . وفي التاريخ والاجتماع لا يمكننا أن نرتجل نواميس اعتباطاً وتقرر أن الجماعات ستسير حتماً بموجبها . فاعتبرنا النظرية القائمة على الظن ، أو التي ثبتت صحتها في ازمنة وأمكنة وحالات معينة ولم تختبر في أزمنة وأمكنة وحالات مختلفة ، قانوناً علمياً لا يتزعزع .

ان كتاب « رأس المال » الذي ألفه ماركس نحا فيه نحواً جديداً وأثار اهتمام المفكرين عامة والمؤرخين خاصة ، إذ أنه أشار مشدداً إلى الدور الذي يلعبه العامل الاقتصادي في حياة الأمم وكيان الشعوب . كان الأساس الذي يرسو عليه علم التاريخ والدراسات الاجتماعية واهياً جداً . كان المؤرخون لا يعنون إلاّ بالناحية السياسية والعسكرية . ويعد الملك وحده قوة وحيدة فعالة في جميع نواحي حياة الامة . ولما نزل نؤرخ العصور الأدبية ونحددها تبعاً للعصور السياسية .

ومما لا مشاحة فيه أن التطوُّرات التي طرأت على أساليب الانتاج قد أحدثت تطوراً في العلاقات الكائنة بين العامل وصاحب العمل ، وقضت على الجفاء ، واللامبالاة التي اتسمت

بها العصور التي تقدمت الثورة الصناعية ، بل أثرت في حياة العمال ومستوى معيشتهم ومدة عملهم ومقتنياتهم من الأثاث والرياش والثياب وغير ذلك . لأن الإنتاج السريع الوفير سبّب أرباحاً طائلة تدفقت على صناديق أرباب العمل وجيوب العمال . ومن ارتفاع الأجور تفتّق الذهن عن رغبات جديدة أو كامنة . وبفضل الإمكانيات المادية التي أصبح ينعم بها العامل وطموح الحرية ، وانتفاء الامتيازات ، وتعدّد نواحي الخير في الحضارة الحديثة ، استطاع أن يلج جميع الأبواب وتمتع بصنوف اللذات . وبفضل تقنين مدة العمل أصبح ينعم ببحبوحة من الوقت ينفقها في اللهو والعبث ، أو الانصراف للاستزادة من الثقافة ، أو الاستمتاع بالجو العائلي . وفي ظل النظام الاقتصادي السائد تصدعت أركان العائلة وطغت الروح الفردية في أعضائها فتبدّد شمل الأسرة . وقد توقع ماركس هذا المصير الكئيب الذي تنتهي إليه العائلة . فيقول : « إن الكلام الفارغ عن العائلة والتربية والحنو القائم بين الآباء والأبناء يصبح مدعاة للاشمئزاز ما دامت الصناعة العظيمة ماضية في القضاء قضاءً مبرماً في صفوف العمال على الروابط العائلية . فيعامل الأولاد وكأنهم سلع تجارية بسيطة وأدوات للعمل » . فالأسرة بدلاً من أن تكون ملاذاً لأعضائها يفزعون إليها كلما أحدقت بهم الهموم قد تفرق أبناؤها وتشتتوا . وهكذا فقدت العائلة العنصر الهام الذي يبرّر وجودها ويدعو لإجلالها ، وهي الوحدة التي ينميها الاجتماع وما يتطلب الاجتماع من تعاطف ومحبة وعناية . وتحوّل البيت الى مجرد مخدع يفد إليه أفراد من مختلف الأنحاء وفي أوقات مختلفة ، قد أنهكهم التعب ، وامتص المجتمع ما في قلوبهم من حب وعطف ، وقضى المعمل والشارع على ما في نفوسهم من عفة وطهارة ، واستنزف الطيش ما في جيوبهم من مال . وبما أن المرأة في المجتمع الماركسي تعد عاملاً اقتصادياً أولاً وأماً ثانياً ، فقد انتزع صغارها من حضنها وأرسلوا إلى رياض الأطفال . ولئن قدّر لهم أن يحظوا بالعناية والغذاء فإنهم يظلون مفتقرين الى العطف والحنان اللذين لا يتضحان إلا في صدر الأم . وبدأ العامل يحاكي من هو فوقه رتبة وغنى ويجاريه في معاشه وأطوار حياته . ولكي يبلغ الدرجة التي يصبو إليها ، ويتذوّق ألوان الترف والرفاهية ، عمد إلى تحديد النسل وأذن لزوجه وبنيه بالعمل كي يخففوا العبء عن كاهله . ثم أن التطور الاقتصادي حدا بالحكومات أن تسنّ قوانين تتعلق بالعمل وشؤون العمال فتحتم حق تأليف النقابات ، وضمنت لهم المساعدة في حالة المرض ، والتعويض في زمن الشيخوخة ، وفرضت شروطاً على أرباب العمل فيما يتعلق بالنساء والأولاد وحالة البناء وساعات العمل ... وأصبح للعمال بفضل تكتلهم وزن يذكر في الشؤون السياسية عامة .

هذه هي بعض النواحي التي تأثرت ولا تزال تتأثر بالعامل الاقتصادي وبتطور أساليب الإنتاج. أما ماركس فانه يعزو الى العامل الاقتصادي ، ثم فيما بعد الى الآلة ، قدرة فائقة على التصرف : فهو الذي يكيف شؤون معيشتنا والسياسة والتشريع والدين والأخلاق ، وبالجملة جميع نواحي النشاط الإنساني . إن هذا التفسير المادي للتاريخ يعصف عصفاً تاماً بجميع الآراء والنظريات التي تقول ، وتثبت حقيقتها ، إن الانسان يتأثر بالدين والأرض والعرق والخصائص الجسدية والنفسانية . وبمعزل عن المؤثر المادي ، فانه يمر بهذا التكوين كما تمر سحابة صيف . فالدين الذي ينكر أثره ماركس من أعظم المؤثرات في المجتمع البشري . وقد ساهمت الديانات مساهمة عظمى في جميع التطورات والمراحل التي مرت بها البشرية . وكثيرون يعزون تقدم بعض الشعوب الى رقي الديانة وسمو مبادئها التي يعتنقها أبناؤها . ثم أن الدين في لبابه مبادىء أخلاقية تهذب سلوك الانسان وتصلح نفسه وتطهرها من أدران كثيرة . والدين يتوخى السلام الدائم للانسان في هذا العالم والحياة في جو من المحبة . وكل رسالة دينية تتضمن نواهي ومواعظ تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتحض على البر والرأفة والوفاء. وأن الانسان تأثر الى مدى بعيد جداً بالطبيعة وما يتعاقب عليها من فصول وبكر من ليل ونهار . نعم أنه تأثر بالنهار الذي يبعثر الأفراد ويبدد العمل ، وبالليل « ليل الأشباح والأرواح والأخيلة » كما يقول جبران ليل الظلام والمخاوف التي تفرض الاجتماع فالائتلاف . وبهذا الصدد يقول : ألان : « إن مؤسساتنا وليدة الليل قبل أن تكون وليدة الجوع أو العطش أو الحب » . ومن نظام الحراسة الذي يفرضه الليل يمكننا أن نفهم « لماذا تفضل الأمانة على الشجاعة » . ولن يقوى الانسان أن يتحرر من أثر المرأة وما ينشب بينه وبينها من علاقة ، وما يتخلل هذه العلاقة من حب وبغض ، ووصل وهجر ، وما تتصف به من قبح وجمال ، وما يؤثر عنها من فضيلة ورذيلة ... ويتأثر كذلك بالرجال والأولاد ، والصحة والمرض ، والحرب والسلم ، والكفر والايمان . من هذه الأمور وغيرها يتكون نسيج حياتنا . ولاختلاف التضاريس ، وتنوع المناخ ، وحدوث الغزوات والحروب والمجاعات ، والحدود المنيعة التي تحد من فعاليات الشعوب ومن مدى اختلاطها واحتكاكها ، نصيب عظيم في نشوء المدنيات ونموها وتقهقرها .

إن مبدأ المادية التاريخية ينافي تماماً مبدأ المسؤولية في الانسان ويقيد حرية الاختيار ، وتسقط عنه مسؤولية الخير والشر ولا يحق للمجتمع أن يناقشه الحساب لأن لا قدرة له ولا حيلة في صوغ طباعه وتهذيب مناقبه وعواطفه بل هي رهن مشيئة قوة جامدة آلية .

والايمان بالمادية التاريخية يولد عقيدة الجبرية الاقتصادية التي تحدد مصير الانسان

تحديداً رياضياً . فما دامت أساليب الانتاج هي التي تهيمن وجدان الأفراد والجماعات فينبغي أن تتماثل الجماعات البشرية في أخلاقها وعواطفها ودياناتها وفنونها وآدابها ، إذا تماثلت أساليب الانتاج فيها وبلغت درجة واحدة من التطور الاقتصادي . وفي الواقع ان التمايز في هذا العصر الصناعي قد عظم وازداد وضوحاً وانتشاراً . ولا تتوفر المماثلة إلاّ في البيئات المتبدية المتكتلة ومرد ذلك الى أن الجماعات البشرية لا تخضع للمؤثرات الاقتصادية فقط ، بل أنها تتأثر بمجموع التيارات ، من أدبية وعلمية وفنية ونفسية ومدنية ، التي تتفاعل طليقة ضمن تخوم القطر الواحد ، وتتأثر بالتيارات المنبثقة من مختلف البلدان . وقد أصبح من الميسور في هذا العصر انتشار الحضارات . ويزداد التنوع ويعمق ويعظم بمقدار ما يتمتع الانسان بحرية العمل والقول والتفكر والوجود . فالعمال الذين يعملون مجتمعين ساعات معدودات في المصانع ، يتفاعلون فقط ضمن الجو العملي وما يتفرع عنه من اهتمام بمصالحهم وأجورهم . لكنهم لا ينسلخون عن المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه ، ولا ينقطعون عن التأثر والتأثير به من شتى النواحي . ان المجتمع زاخر بالمؤسسات الثقافية من علمية وأدبية ودينية ، والصحافة والمسارح والنوادي والكتب وغيرها من ألوان النشاط الفكري والاجتماعي .

وإذا كانت الشيوعية الماركسية مؤمنة بقناعة وصحة التفسير المادي للتاريخ ، وان الانسان لا فكاك له من سلطان أساليب الانتاج ، ولا يستطيع فرد مهما سما أن يكون دولاباً يدور بعكس دواليب تدور يسرة ، فعلام نراها تتوسل لاقرار هذا المبدأ بشتى الوسائل والسبل : انها تشجع كل حركة ترمي الى الاضراب والانتقاض والشغب ، وتوجه الصحافة والتأليف والتفكير والوجود توجيهاً صارماً عنيفاً لا رحمة فيه ولا هوادة ، وفق هذه الاهداف . وتراها تعاكس وتعقت كل اصلاح ، اجتماعياً كان أم اقتصادياً ، ذلك لأن كل محاولة ترمي الى اصلاح الفاسد تؤخر الثورة التي تقلب المجتمع انقلاباً يمتد الى الأعماق .

ويقيني أن الآلة التي ابتكرها الانسان والأساليب الاقتصادية التي طرأت على الانتاج لم تنفرد وحدها بالتأثير في حياة العمال أنفسهم ، بل أن الفضل العظيم يعود الى زعماء انبثقوا من صميم الشعب يحملون بين جوانحهم قسطاً كبيراً من العطف والرحمة وقسطاً أكبر من الفهم والوعي لشؤون العمال ومشاكلهم . ومن الامتهان لعبقرية الانسان وفكره وخياله ان نهبط به الى مستوى الآلة الجامدة ونقارن بينه وبينها . وان في شخص ماركس نفسه ما ينقض قوله ويدحض زعمه . فعندما وضع تآليفه لم يكن سوى مثالي idéaliste من طراز كبير . فمثله ومثل غيره مثل مشكاة استضاء بها العمال للاهتداء الى الحقوق المهضومة . ولعل حالة العمال لم تكن ما هي عليه الآن لو لم يوجد ماركس .

ذكرت قبلاً أن لابريولا يقول « إن الشيوعية تستطيع أن تتنبأ عن المستقبل » والآن أتساءل : هل تحققت النبوءات التي توقع ماركس حدوثها ؟ لقد تنبأ أن الملكية الصغيرة سائرة في طريق الزوال وستحل محلها الملكية الجماعية . ويرد السبب إلى انتشار وسائل الإنتاج والقوى البشرية التي تتبدد فيما لا طائل تحته والفقر الذي أصاب التربة من جراء الاستغلال المتتالي ، إن هذه النبوءة — ازالة الملكية الفردية — لم تتحقق طبيعياً ، بل تمت في الأقطار التي استعمل فيها العنف والمصادرة بغية تنفيذ هذه النظرية . أما في البلدان الأخرى فقد عمدت الحكومات الى تحديد الملكية الفردية تأميناً للصالح العامة ولإيجاد الانسجام بين مختلف الطبقات لا انقضاء عليها . وفي عام ١٨٥٠ كان عدد الأسر في انجلترا التي تملك من ١٥٠ — ١٠٠٠ جنيه ، ٣٠٠,٠٠٠ عائلة . وفي عام ١٨٨١ بلغ هذا العدد ٩٩٠,٠٠٠ أسرة . فما دام عدد الذين يملكون يزداد ، وعدد الذين لا يملكون يتضاءل ، فإننا نبتعد عيناً فشيئاً عن الجحيمة التي تنبأ عنها ماركس . وفي ذلك يقول كونسكي : إذا كانت المساوىء الكبرى الناجمة عن أسلوب الإنتاج الرأسمالي لاصقة بأوائله فقط ، وينبغي أن تتناقص فيما بعد ، واذا كان عدد أولئك الذين يملكون يزداد ، وإذا كانت المتناقضات الاجتماعية تتضاءل شيئاً فشيئاً ، وإذا كانت الطبقات العاملة تأمل أن تتحرر أو على الأقل أن تحرز مكانة مرضية ، فأية فائدة تنجم عن الاشتراكية ؟ أقر بصراحة إني أعتبر الاشتراكية خطأ فادحاً » .

وليست الحروب التي ملأ ذكرها بطون التواريخ . إلا نزاعاً بين الطبقات التي تعود في منشئها إلى التفاوت في المراحل الاقتصادية . ويقول انجلس : « إن ماركس أول من اكتشف الناموس العظيم الذي يسم الحركة التاريخية . وطبقاً لهذا الناموس ، فإن كل ماحدث من المعارك التاريخية في الحقل السياسي والديني والفلسفي وفي أي حقل آخر مثالي ؛ ليست إلا تعبيراً صادقاً تقريباً عن المعارك التي تنشب بين الطبقات الاجتماعية . وينجم عن هذا الناموس أن وجود هذه الطبقات ونزاعها يرتبطان بالمرحلة التي بلغتها حالتهما الاقتصادية وأساليب الانتاج ، وأخيراً بأسلوب المبادلة الذي يتفرع عن الانتاج » .

ويستخلص من رسالتين كتبهما انجلس إحداهما في ٢٧ أكتوبر ١٨٩٠ والأخرى في ٢٥ يناير ١٨٩٤ أن الظواهر الاقتصادية هي الباعث الأول على حدوث المظاهر السياسية والحقوقية وحتى التصورات الدينية التي لا تعد إلا « ظلالاً » اقتصادية . ولو لم يوجد نابوليون لاحتل آخر مكانه . لأن كل شيء رهن الواقع والضرورة » .

هل الحروب التي جرت في العصور القديمة أم الحديثة كانت حروباً طبقية أم حروباً بين الأمم ؟ ان جميع الحروب التي نشبت في الشرق والغرب لم تكن حرباً بين الطبقات ، بل انها

في الصميم نزاع بين القوميات التي تقطن أوطاناً معينة وتتكلم لغة واحدة وتنتسب إلى أقوام تخضع في كينونتها لدورة حياة واحدة. ومن العاجل لما يحقق حلم ماركس انجلز: «العمال لا وطن لهم» لجميع الأحداث، وأقواها الحرب الاخيرة برهنت أن العامل مواطن قبل وبعد كل شيء وانه ينظر إلى الأمور ويزنها من خلال مصلحة أمته. وما من ثورة أو حرب أو عصيان إلا ساهمت فيها جميع الطبقات وكانت نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية وعرقية وغير ذلك من الأسباب الخفية. من ذا الذي قام بأعباء الثورة الفرنسية؟ يقول سان سيمون: «ان الثورة الفرنسية كانت من صنع العلماء والفنانين الذين آذتهم النظم الاقطاعية في الصميم، فقذفوا بالمعدمين الجولة ضد المالكين المحافظين». وليست أساليب الانتاج التي حدت بالشعب إلى الثورة، بل كتابات ڤولتير التي ما انفكت تحض على التحرر الذهني حتى تنال الحرية، وكتابات روسو التي كانت تدعو إلى الفروض الاجتماعية إلى أن تحصل المساواة والعدل. ولم يقم العبيد وحدهم في الثورة التي نشبت في روما، بل كان يوجد بينهم عدد غير قليل من الأغنياء الذين كانت تحدو بهم الرغبة إلى تسلم زمام الشؤون السياسية التي لا تتطلع إليها الطبقة الفقيرة المعدمة. فتضافرت مطامع الطبقة الفقيرة التي تتوخى العدل الاجتماعي ومطامع الطبقة الغنية التي تنشد المنصب والجاه. وان الحروب الصليبية لم يكن سببها الباعث الاقتصادي ولم يكن رائدها الاقتصاد ولم يلح فيها ظل للطبقات والفوارق العنصرية والقومية والاقليمية، بل إنها صهرت قوميات حتى كانت متباعدة متباغضة. وتعود في أبعد أسبابها إلى نعرات دينية عملت في الفريقين المتحاربين. وان الذي دفع إليها ونمى الحركة وجعلها تشمل معظم شعوب أوربا البابا ذاته. ولا يتطرق الشك إلى مدى السلطة التي كان يتمتع بها يومئذٍ. فقد جمع في قبضته السلطتين الزمنية والروحية. ولم يكن يسعى لتيسير سبل التجارة، بل كان يسعى لانتزاع القبر المقدس من قبضة الدولة المسلمة المسيطرة. وقد رتب على هذه الحرب الدينية نتائج اقتصادية خطيرة: فتوثقت العلاقات بين الشرق والغرب ولاحت للفريقين امكانيات تجارية لم تكن في الحسبان فان القبر المقدس أصبح يجذب سنويّاً ألوفاً من نصارى الغرب الذين يؤمون الديار المقدسة. وقد نشأ عن تدفق الحجاج الى سوريا شركات للملاحة في البندقية ومرسيليا. ولست أعدو الغرض المعقول إذا قلت أن اكتشاف أميركا فكرة نبتت من صميم العلاقات التي تلت تلك الحروب. إذ من المعلوم أن مدن الشرق: القسطنطينية وحلب ودمشق وبغداد، كانت أسواقاً لحاصلات الشرق الرئيسة. وان ابان غزوتهم سوريا قد تعرفوا الى هذه المراكز. وتذوقوا الأفاويه وشاهدوا العاج والأقمشة الحريرية والسجاد. وعلامَ كان يبحث كولمبس؟ ألم

تكن الهند ، منبع الغرائب ، هدفه ? وان البرم الذي أصاب التجار من نزول الطريق الشرقية وأثرها في ارتفاع الأسعار حملت أولي الشأن على التفكير جدياً في الاتصال مباشرةً بالهند . وعلى أثر الحروب الصليبية تغيرت معظم خطوط الملاحة وطرق التجارة البرية . ولا يتسع المجال لذكر الفوائد الزراعية والصناعية والعلمية التي حصل اقتباسها من قبل الطرفين لدن احتكاكهما .

وتستولي علينا الحيرة إذا ما رمنا تعليلاً صحيحاً لاختراع المطبعة . هل هي التطورات الاقتصادية أم الثقافية التي وجهت ذهن جوتنبرج ودفعته للبحث والتفكير بطريقة تريح الناس من عناء النسخ ? لا نجد لذلك تعليلاً معقولاً إلا في التقدم الثقافي وتفتح الأذهان وما ينشأ عن ذلك من رغبة ملحة للمطالعة والبحث والتنقيب واقتناء الكتب . وعلى أثر اختراع المطبعة ، وطبع الكتاب المقدس ونشره بين الناس بلغة سهلة ملسة ، بعد أن كان وقفاً على الكهنة ولا يتجاوز نطاق الصوامع والأديرة ، حصلت حركة الاصلاح الديني التي نادى بها لوثيروس . زد إلى ذلك الكراهية التي كانت تضمرها الشعوب الشمالية للشعب الايطالي الذي يتحكم في شؤون الكنيسة . وقد أذكى لوثيروس هذا الاستياء بدعوته من روما إذ قال : « ان الجرائم في روما لا توصف . فن الالمان شريرون . أما الطليان فانهم كفرة ويهزؤون بالدين الحقيقي . إنهم يسخرون منا نحن المسيحيين ، لأننا نؤمن بكل ما جاء في الكتاب . . . ويخشون القديس أنطونيوس أكثر مما يرهبون المسيح . . . » وكانت النهضة الأدبية في القرن السادس عشر نتيجة لازمة لبعث الثقافتين الاغريقية واللاتينية ونشر المؤلفات القديمة . إن المطبعة أحدثت حركة النهضة في القرن السادس عشر ، أما في القرن التاسع عشر فانها نشرت المجلة والجريدة . ولا يمكننا بحال من الأحوال أن نحدد الأثر العظيم والدور الكبير الذي لعبته الصحافة في العصر الحديث . إنها أكبر أداة للتوجيه والاذاعة في هذا الجيل . وإن ماركس نفسه مدين للصحافة التي عملت على تبسيط ونشر نظرياته ومبادئه في مفرق الشعب . ولا يعد تحقيق الماركسية الشيوعية في روسيا انتصاراً لمبدأ المادية التاريخية بل تكذيباً قاطعاً وتأييداً صارماً لضعف النظرية وفشل النبوءة . ذلك لأن الثورة الشيوعية نشبت في البلاد التي لم تترعرع فيها الرأسمالية وتظهر مفاسدها ومساوئها ، وإن أساليب إنتاجها كانت متأخرة إذا ما قورنت بالدول الغربية ، لكن استتباب الأمر للشيوعية عام ١٩١٧ يعود إلى ضعف الجهاز الحكومي القيصري الذي انهار عند أول صدمة ، وبانهياره آلت البلاد إلى يد حازمة حديدية هي الحزب الشيوعي . وقد تكون روسيا مدينة في ثورتها الاجتماعية ـ الاقتصادية ـ السياسية لا الى ماركس وتلاميذه فحسب ، بل الى الفرنسيين الذين طمروا مراحل الثورة الفرنسية ، وبهدوا بيقظة الروح القومية في البلاد التي غزاها نابليون ، ورأوا

عن كثب الفرق الهائل بين مستوى حالة الفلاح الفرنسي والفلاح الروسي . ويقول «بليخانوف» في كتابه القيم «المدخل الى تاريخ روسيا الاجتماعي» الذي ألفه وهو متمسك بمبدأ التصور المادي للتاريخ ، ان الانتصار الذي أحرزته القبائل المتبدية على الروسيا في اقطاع كييف ، اضطر الجماعات الروسية أن تنزح صوب الشمال والشمال الغربي من روسيا ، مما أدى إلى تأخر ظهور المدنية الروسية وسبب انحطاط الطبقات القروية . ويذكر أيضاً أن للوسط الجغرافي الروسي أثراً بارزاً في التاريخ السياسي من جميع الوجوه .

ولا يمكننا ان نسلم بصحة قول أنجلس : «إن كل شيء رهن الواقع والضرورة» . فالظروف تكوّن الجو الملائم لظهور الشخصيات ، لكنها لا تخلق الأشخاص وما ينطوون عليه من خلق وفكر وخيال . ولو كان الأمر للظروف التي يسري تأثيرها على الجماعات بعمل واحد لجملتهم نسقاً ، وعلى درجة واحدة من الوعي والفهم ، فلو لم يظهر محمد في الحجاز يومئذٍ لما ظهر غيره . والبرهان على ذلك أن تلك البلاد عجزت من انجاب شخصية كمحمد قبل أن يولد وقبل أن يبلغ سناً معلومة رغم أن ظروف المعيشة وملابسات الحياة وأحوال الجزيرة لم تصب بتغيير أو تبديل . وما من عظيم كان وليد ضرورة ساعة ظهوره ، أو استجابة لنداء الجماعات المتطورة . ولو كان وليد الضرورة القاهرة لما حورب مصلح ولا نبي ولا اضطر هو أن يحارب الجماعات التي ظهر في وسطها أو يكافحها تارةً باليد وطوراً باللسان . فيسوع صلب ، ومحمد هاجر وحارب بغية اقرار فكرة التوحيد في القلوب . وان يسوع يعبر عن الحقيقة التي اكتنفت رسالته إذ يقول : «ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً . فاني جئت لأفرق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها» . ولو كان المجتمع العربي يشعر آنئذٍ بتعطش حقيقي إلى رسالة سماوية لما عامل محمداً معاملة تجلت فيها الغلظة والقسوة والنكران . وكيف نستطيع أن نعلل تغلغل الرسالات السماوية رغم مناقضتها للمبادىء السائدة والعقائد المستقرة ورغم العراقيل التي تعترضها ، والشر الذي يلاقيه المبشرون بها .

جميلٌ أن نجمع في العقيدة بين الولاء للأرض والتطلع الى السماء ، ونعدل في الحياة بين القلب والبطن ، ونوفق بين رغبات الروح ومتطلبات الجسد . وليس بجميل أن تحول الأرض بيننا وبين السماء وتطغى المادة على الروح . انني أؤمن بالانسان وما فيه من قوى فاعلة في سبيل الخير والجمال والحق ، وأؤمن ان الحياة سوف لا تنفك تغربله في غربال اللذة والألم كي تدنيه شيئاً فشيئاً من الصبغة القصوى التي تتجلى في المحبة الشاملة . وركب الانسانية ما انفك سائراً صوب هذا الهدف رغم وعورة الطريق وطولها وكثرة الأشواك وخور العزائم .

صافيتا — سوريا

الياس بعقوب